

مرسلات ...

الغيرة

إني لتدركني الشفقة أحياناً على هذه الكلمة المفردة ، كما يشفق امرؤ ذو قلب على عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر . إن أحداث الزمان قد جارت عليها ، وإن الدهر القلْب الذي يتنكر لكل شيء قد تنكَّر لها . إنها كالوظف المزعول الذي لم يمد يظهر في ديوان عمله ، أو كالتقد الثمين المتألق الذي لا يجد صدراً يزينه . إنها كالقلادة الرقيقة التي مات صاحبها وقيت في « خلفاته » تندبه في صمت ، وتذكَّر به كلما رمقها الميون ! لقد كانت « الغيرة » معنى مشرقاً في صدور الرجال ، فأصبحت رسماً باهتاً في بطون الكتب ؛ وكانت « مادة » ملوثة بارزة الأثر في حياة الناس ، فأصبحت « مادة » قابعة في قواميس اللغة !

لقد قشَّت عنها في نواح كثيرة من نواحي الحياة ، فلم أجدها كنت أحب أن أجدها : لم أجدها في البيت لأنني وجدت « المرأة » تحمك « الرجل » ، فلا يفار على حقه المنصوب ، ولا يالم لبطانه السلوب ؛ ولم أجدها في الطريق ، لأنني وجدت الخاوي تفرض على فارعه في صور مألوفة ، وأشكال معروفة ، فلا يفضب عليها غضبٌ ولا يحمى بها صدرٌ مغيار ! ولم أفتقدها بين سمار الليل في النوادي الآتمة والمجتمعات المهتكة ، لأنني أعلم كيف تصرع هناك الفضيلة ويصفع الحياء ! ولم أجدها في « مكاتب الموظفين » ، لأنني وجدت الأعمال فيها ههمة ، والأوراق مكسمة والناس على أبوابها يستصرخون ولا من يجيب الصرخ !

وأخيراً ، قشَّت عنها عند الذين يتنادون « بالإصلاح » ، ويتحلون « بالفضيلة » فلم أجدها : لم أجد من يفار على البراميج المعلقة ، والأمانة الضيعة ، والوعود المهملة ، والفساد الذي استشرى ، والنار التي تومض من خلال الرماد !

فأين — يارب — أجدها ؟ أين « الغيرة » ؟

عمر الصموني

الحياة البعيد عن مفاسدها ، على الاتصال بالعقل الفعال بقواه الفكرية وحدها . ولا يوصي ابن باجة بالخلوة — كما يفهم من لفظ التوحد — إنما يرشد الإنسان المشتغل بشئون الحياة إلى سبل الوصول إلى الكمال ، وهو يشير إلى إمكان ذلك سواء كان هناك رجل واحد أو عدة رجال في درجة واحدة من الفكر ، وقد يستطيع هذا أهل بلد بأسره إذا كان تام النظام . ولم تخف على ابن باجة صعوبة هذا الأمر فأوصى التوحد بالميش في أغرب المدن علماً ، أي في أقربها إلى الكمال ، وأجمعها لأهل الفضل والحكمة . وسنعرض فيما يلي أهم ما جاء به هذه الرسالة تقيلاً عن « مونك » مختصرين ما أمكن (١)

الفصل الأول

تكلم ابن باجة أولاً عن لفظ « تدير » وأنه يدل في أوسع معانيه على مجموعة من الأعمال ترى إلى غرض معلوم ، فلا يمكن أن يستدل به على عمل واحد ، بل على جملة أعمال تنجز تبعاً لخطة معينة كالتدير السياسي والحربي . وينبغي أن يكون تدير التوحد على مثال تدير الحكومة الكاملة ، ومن علامات الحكومة الكاملة ألا يكون بها أطباء أو قضاة ؛ لأن أهل هذه المدينة لا يتناولون من الغذاء إلا ما يوافقهم ، وبذا تخفى الأمراض الناجمة من الغذاء ، وأما الأمراض التي تصيبهم بسبب عوارض خارجية فتزول بنفسها . ولما كانت العلاقة بين أهل المدينة بعضهم مع بعض أساسها المحبة امتنع الخلاف فاستغنى عن القضاة . والحكومة الكاملة تكفل لفرد أن يبلغ فيها أرقى منزلة من الكمال ؛ لأن الكل يفكرون بأعدل تفكير ، وينظرون أدق نظر ، ويطيع كل فرد ما تأمر به القوانين ، لأنه يكون عالماً بها ، وبذلك تخلص أعمال الإنسان من الخطأ والهنر والخلل فلا يكون الناس بحاجة إلى الطب الأخلاقي وهو ما لا غنى للجمهوريات الناقصة عنه (البقية في العدد القادم)

(بيروت)

عمر الصموني

(١) وجدنا في كتاب تاريخ فلاسفة الاسلام للأستاذ محمد لطفي جمعة ترجمة لما ذكره مونك عن ابن باجة ونقلنا لكتاب تدير التوحد ، ولكن من الأسف لم يذكر الأستاذ جمعة أنه نقله عن مونك ، كما أن ترجمته تدل إما على قلبه أكثر من أو عدم فهم ، وذكر كذلك ما نقله مونك عن الفتح ابن خاتان وطمته في ابن باجة الذي نقلناه سابقاً ولم يرجع إلى ثلاثه البيان لينقل منه النص العربي فجاءت ترجمته مشوهة ، كترجمته لتدير التوحد ، وهذه زلة من الأستاذ كنا نقره عنها